بمناسبة المولد النبوى :

نشأة البديعيات في مدح الرسول

الاستاذ حامد حفنى داود الجرجاوى

لم ينعم نبي فى أمته بمثل ما نعم به محمد صلى الله عليه وسلم . ولم ينل نبي من الرضا عنه والثناء عليه مثل ما ناله النبى الأعظم من الثناء والإجلال ، وليس ذلك بعجيب أو مستعظم بعد أن سجل الله له ذلك فى محكم كتابه « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ومدائح النبى الأعظم لا يحصيها عد ولا يشتملها كتاب فرد كائناً ما كان : وقد حاول العلامة الشيخ يوسف النبهانى أن يحصيها فى كتابه « المدائح النبوية » — فعجز — مشكوراً — عن إدراك غايته * .

ولو تتبعنا فن (مديح الرسول الأعظم) منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا لوجدناه نوعين : مديح تقيد فيه ناظموه ببحور معين وقافية خاصة ونمط مصطلح عليه ومديح لا يتقيد فيه ناظمه ببحر معين ولا بقافية خاصة أو نمط مصطلح عليه وقد سمى النوع الأول « البديعيات » أما النوع الثانى فهو من « المدائح النبوية » العامة.

ولو تتبعنا تاريخ « البديعيات » لوجدناها كلها نوعاً واحداً . التزم فيها ناظموها بحر (البسيط) وقافية (الميم) واشترطوا فى كل بيت من أبياتها محسناً من المحسنات البديعية المعروفة على عهدهم ، وقصدوا بذلك تطريز هذا الصنف من المدائح بجميع الصور البلاغية .

* أوضحت هذا العجز فى كتابى « تاريخ البديع من القرن الثانى إلى أواخر القرن الرابع عشر » .

وأول بديعية استكملت هذه الشروط كلها « بديعية صفى الدين الحلى » المتوفى عام ٧٥٠ هـ . وقد استهلها بقوله :

أن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم ... واقر السلام على عرب بذى سلم
فقد ضمنت وجود الدمع من عدم ... لهم ولم أستطع من ذاك منع دمى (١)

وهى بديعية طويلة تقع فى مائة وخمسة وأربعين بيتاً .

ومن ثم جرى الشعراء على منواله منذ القرن الثامن وهم لا يزالون كذلك إلى اليوم الذى أنشأ فيه أمير الشعراء أحمد شوقي بك « بديعية نهج البردة » التى أولها :

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

فكل ما قيل فى مدح الرسول — منذ القرن الثامن إلى اليوم — من قصائد منظومة فى هذا البحر والقافية ، وذلك النمط الذى يلزم فيه الناظم استخدام المحسنات البديعية يسمى « البديعيات » وواحدتها « بديعية » . ولعلهم لم يختاروا لها هذا الاسم إلا لاستخدام المحسنات البديعية فى كل بيت من أبياتها .

فكيف نشأت البديعيات فى تاريخ الأدب ؟ الحق أن صفى الدين الحلى لم يكن أمة وحده فى اختراع « البديعيات » وإن كان له فضل اختراع التسمية واشتراط قافية الميم واصطناع البديع فيها

ولو أنك استعرضت معى المدائح النبوية كلها لرأيت الجذور الأولى للبديعيات واضحة فى جميع المدائح النبوية القديمة التى نظمها أصحابها من بحر البسيط

ولعل « قصيدة كعب بن زهير » المتوفى عام ٢٦ هـ هى أول قصيدة كلاسيكية من هذا النوع أنشدها صاحبها وبين يدى الرسول الأعظم

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يجز مكبول
وما سعاد غداة البين إذ بزلت ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

وفى القرن الخامس نظم العارف بالله عبد الرحيم بن أحمد البرعى اليمنى المتوفى عام ٨٠٤ هـ قصيدة من هذا النوع أولها :

(١) بديعية صفى الدين الحلى (نسخة مخطوطة رقم ١٢٨ بلاغة بدار الكتب المصرية) .

خل الغرام لصب دمعه دمه | حيران توجده الذكرى وتعدمه
وامنح له بملاقات عاقنى به | لو اطلعت عليه كنت ترحمه .

واختتمها بقوله مصليا :

عليك منى صلاة الله أكملها | ياما جداً عمت الدارين أنعمه
تبدى عبيراً ومسكا صوب عارضها | ويبدأ الذكر ذاكرها ويختمه .
ما رنح الريح أغصان الأراك وما | حامت على أبرق الحنان حومه .
وينثنى فيهم الآل جانبه | بكل عارض فضل فاض مسجمه (١)

* * *

وفى القرن السادس نظم جمال الدين بن يحيى الصرصرى المتوفى عام ٦٥٦ قصيدته ، ولو تأملتها لوجدتها عين ماقاله البرعى بحراً وقافية ورويا وافتتاحاً واختتاماً . وقد أثبت المنهج العلمى بعد البحث والاستقراء أنه عارضه بها ، حيث افتتحها بما اختتم به البرعى قصيدته :

أغرى المحب بذات الستر لومه | فبان سر غرام كان يكتمه
أنى يلام على التذكار ذو شغف | متيم بسهام القلب مغرمه

واختتمها بما اختتم بها البرعى قصيدته : .

عليك منى صلاة الله أطيبها | ومن سلام إله العرش أدومه
وعم بالفضل من واساك فى عسر | وذب عنك غداة الروع مخذمه
من آلك الغر والأصحاب إنهم | أفلاك دين الهدى فينا وأنجمه
ومن تلاهم بإحسان فأنت له | ذخر أجاهك رب العرش يرحمه (٢)

فلما كان أواخر القرن السابع نظم الإمام شرف الدين محمد ابن سعيد الصنهاجى الدلاصى المشهور بالبوصيرى المتوفى عام ٦٩٤ هـ قصيدته الخالدة المشهورة باسم « البردة » فلم يزد على ما سبقه إليه كعب بن زهير والبرعى والصرصرى سوى (قافية الميم) كما ترى :

أمن تذكر جيران بذى سلم | مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة | وأومض البرق فى الظلماء من إضم

وقد كان لسقوط بغداد فى منتصف هذا القرن (عام ٦٥٦ هـ) هزة عنيفة ، كانت من أكبر الهزات التى انتابت جوانب الإسلام فكان لها أكبر الأثر فى الحياة الأدبية . والنفوس دائماً تأبى إلا أن تنتمى إلى قوة قادرة مدبرة تدبرها وتدير شؤونها وترعى حقوقها . وهى لم ترض فى ذلك العصر بهذا الفاتح الغاشم ولا بهذا السلطان الجديد — التتار — الذى كان مخالفاً للكثير من تعاليم الإسلام وتقاليده الراسخة فى النفوس . فلم يكن بد لهذه النفوس المظلومة على أمرها من أن تسلك دوراً جديداً ، يحقق لها معانى الاتزان النفسى ، وليس لتلك النفوس بد من أن تجدد عهودها مع القوة الروحية القديمة لتأنس إليها وتستمد منها قواها الدنيوية وآمالها الأخروية.

وهكذا كان هذا الأثر أسبق إلى نفوس الشعراء قبل غيرهم ، وهم أولى الناس بإظهار أحاسيسهم وإبداء عواطفهم والتعبير عن مشاعرهم المرهفة القوية . ولم يكن هناك بد من أن يهرعوا إلى مدح المصلح الأول (٢) فنظم الصرصرى (٦٥٦ هـ) والوترى (٦٦٢ هـ) والبوصيرى (٦٩٤ هـ) والعزازى (٧١٠ هـ) مدائحهم الخالدة . فلما جاء الشعراء من بعدهم نسجوا على منوالهم قصائد تشبهها فى الوزن والقافية مراعاة لهذا التقليد الكريم .

ثم جاء صفى الدين الحلى فى منتصف القرن الثامن ودفعه ما فى « بردة البوصيرى » من محسنات بديعية أن يجعل قصيدته زاخرة بالبديع فسمى مانظمه « بديعية » واختار لها هذا الاسم ، فأصبح علماً تقليديا على كل قصيدة ينظمها صاحبها فى مدح الرسول الأعظم محتذياً الوزن والقافية والمحسنات البديعية ٭

حامد حفنى داود الجرجاوى
دبلوم معهد الدراسات العليا
وأستاذ العربية والتربية بمدرسة المعلمات الراقية بباب اللوق

(١) ديوان البرعى
(٢) المجموعة النبهانية ج٤ س ٤٠ وما بعدها

(١) انظر تشطير « بردة البوصيرى » لأستاذنا أحمد العزقاوى ص ٢٢ س ٩
(٢) تاريخ البديع من القرن الثانى إلى أواخر القرن الرابع عشر « لصاحب هذا المقال » ج ١ ص ٩٩
٭ إن كان فى العمر بقية فموضوعنا فى العام القادم « بلاغة البديعيات »